جايمس رسل لويل

لمحمد عبد الغني حسن

لم تخل أميركا قبل بزوغ شمس القرن التاسع عشر مكاناً رفيعاً في عالم الأدب العالمي . فقد كانت قبل ذلك طفلة في الوجود لا ماضي يتصل به حاضرها ، ولا قديم يرجع اليه حديثها . ولما نبت عن الطوق وكادت تستوي على قدميها شغلتها حروب استقلالها

ولم يجرؤ أحد في تلك الأيام أن يثني على شاعر أميركي او يقدر مواهبه . ولعلّ شعراء كثيرين ظهروا في هذه الفترة إلاّ أنهم كانوا مغمورين كشعراء ما قبل العصر الجاهلي في الأدب العربي . حتى جاءت مجلة « ادنبره » فتكفلت بتقديم الشعراء والكتّاب الناشئين الى قرائها

ولعلّ أغنى مقاطعات الولايات المتحدة بالكتّاب والشعراء الطبيعيين هي منطقة ولايات « أنكلترا الجديدة » . فهناك على الصخور البل بولاية « هامشير الجديدة » وعلى شاطىء نهر « بيرتاك » الجميل كانت الحياة زاخرة بالحركة الدائمة . وكانت تتجاوب في أجواء هذه الولاية أصداء متباينة ، ترسلها أجراس المصانع وجلبات المعامل الناشئة حديثاً ، وكانت الحلبة تزداد كل يوم تبعاً لتزايد حركة البناء . . . وتعالت في السماء أبراج الكنائس . وتزاحمت في الأرض الفضاء والقرى والمدائن . وأخذت هذه الولاية الناشئة سبيلها في الحياة الجديدة لعالم الجديد بسرعة وعناء . ومن عجب أنهُ يجانب هذه الحركة المادية الصناعية البارعة لم تظهر حركة عقلية تسايرها وتحاذيها . فهنا النهر الجميل الذي يناظره الساحرة ولكن ليس على شاطئه شاعر . . . وهناك الغابة الكثيفة او الحقيقة ولكن ليس بين جراجها متأمل . . . وهنا أجناس من الخلق مختلفة ولكن ليس فيهم مؤرخ يقص تاريخهم او يسجل حياتهم

وكأن أصوات هذه الضوضاء الصاخبة ، والحلبة الصاخبة ، والمشاغل المادية ، حركت بعض العقول من سباتها وتهتها الى جمال الهدوء في ظل الأدب ، والسكون في خمائل العلم . فانتشرت المدارس وظهرت الجرائد . واصلاات بوستن وكامبريدج بالمدارس ا . . . . .) وكانت هذه المدارس على تمثل براعتها وقدم طرائق التعليم فيها وقد . . . . . فضل الأول في تغذية الروح الأدبي في هذه الناحية . وتناولت الشؤون و . . . . . الجديدة تنشر في

سبيل النهضة العلمية الأدبية بحظ سراع . ولم يبرغ القرن التاسع عشر حتى كان فيها جماعة من الرياضيين والعلماء أمثال « يونسف ستوري » و « وليم برسكوت » و « بكرنج » المستشرق العربي والسنسكريتي الذي أحد عشرين لغة ، وبودتش الرياضي

وأخذت شهرة الجامعة الجديدة ترتفع بسرعة عجيبة في عالم الأدب . وأتاحت لها الأقدار السعيدة أن يجتمع فيها في النصف الأول من القرن التاسع عشر جماعة من أعلام الأدب الأميركي ، ولدوا فيها وشبوا وشاخوا بينهم وشائج وثيقة . ووضعو النواة الأولى في كنز أدب أميركا . كما وضع الجاهليون النواة الأولى في كنز أدب العرب . وأصبحوا نجوماً ساطعة في سماء الأدب العالمي يقرأهم ويحفظ عنهم ويعتد بهم . وفرضوا على العالم — وكان بالأمس مغضياً عن أميركا الأدبية — أن يستمع إلى الهام شعرائها ووحي كتابها وتاج أدبائها . وعلى رأس هذه الجماعة ، لونج فيلو ، وأمرسون وثورو (وقد تحدثت عنه في مقتطف يناير سنة ١٩٣٩ ودانا « الابن » ولويل وأالكوت

* * *

وحديثنا اليوم عن جايمس رسل لويل . وقد نبدأ به الحديث عن هنري ثورو لأنهما شربا من نبع من الطبيعة واحد . فيها إناها الفارقان في بحرها النجي . الراشفان من حلاوة خمرها . وإذا كان ثورو قد خرج إلى غابة « والدن » وغديرها . وعاش فيها أكثر من عامين بعيداً عن الناس ، مؤتنساً إلى طيرها الساجع وسمكها السابح أو عصفورها القانع ، فإن لويل اتخذ من شباك غرفة مطالعته مرقباً يطل منه على حديقة يلاحظ أشجارها ، ويراقب أطيارها ، ويدوّن أخبارها وآثارها

نشأ لويل في كمبردج الأميركية وهي مهد كثير من الأدباء . فكان أذكى شبابها وأكثرهم توقد ذهن ، وحضور بديهة ، وقد أدرك هو نفسه هذا الذكاء فداخله شيء من الزهو والغرور . وكانت نيران الفتنة لا تتعلق بينه وبين أترابه . إلاّ أن شيئاً من خفة الروح الكامنة فيه كان يلطف حرارة هذه النيران . ولقد بدأت طلائع نزوعه الأدبي تظهر في صباه . فهو ميال إلى الكتب نهم إلى قراءتها . وهو محب للازهار دائم بها . وهو يضيف إلى ذلك ملامح السرور البادية على وجهه حينما تراه يقرأ أو تسمعه يتكلم أو تشاهده يدخن . ولكن شيئاً من كل الشعر لا يرضيه . فهو يستطيع أن يطرح على ظهره أياماً طويلة غرقاً في أحلام لا انتهاء لها أو سابحاً في ديوان من الشعر . وصالما عاودته نوبات غريبة كان يغيب فيها عن حسه ويذهب في عالم بعيد . . . وما أكثر هذه النوبات حينما يتفتح شهر يونيو في أميركا عن عاصفة من أزهار الصيف . وكذلك أشعه صاحبنا « دانا » الابن في معاودة هذه النوبات

هناك في منزل ريفي كبير نشأ لويل . وهو منزل يطل على بياض واسعة وحقول مترامية يتسمخ في الصيف رائحة الهشيم الذي يلفظه « لويل » عابثاً به بين أصابعه . وكانت عين الآنسة

ماري لويل تقرأ له في الحقل أشعار شكسبير فينام على أنغامها ، كأنها تراتيم المساء ... وكانت هذه السنة أدبية صايفة فهي تعيد اثنتي عشرة لغة ، أضافت اليها لغة الهجر وبولونيا

ولقد ساعدت الظروف مجتمعة على تنشئة « لويل » تنشئة أدبية . فمنذ كان عمرت أدبية لغوية . وأبوه يملك مكتبة تزخر بالنفيس من الكتب . وشباب كامبريدج من آراب لويل وأقرانه اشتهروا بذوق أدبي خاص . والطبيعة من حوله ساجية جميلة حتى في ساعات عبوسها ... ! والظروف كلها مواتية فلم لا يقرأ ؟ ولم لا يفهم ما يقرأ ويستوعبه ؟ . ولم لا يعلق على ديوان هذا أو كتاب ذاك ؟ وفرق ذلك ان الطبيعة أمامه سفر مفتوح وكتاب مسطور فلم لا يقلب طرفه فيها

هذه خزانة أبيه عامرة بالكتب . فاليوم لسقراط . وغداً لأفلاطون . وبعد غد لسكا الحكيم . وكانت طلاقة لسانه في اللاتينية لا تقل عنها في الانكليزية . فاذا بدأ الكلام لم تبرح أفاعيه . ولم يحتبس لسانه . وكان دقيق النظرة كما كان دقيق الفكرة . وكذلك شأن شعراء الطبيعة وكتابها . فما مرت حادثة في حديقة الا سجلها وعلق عليها والمس لها تأويلاً وتفسيراً . ولا قامت معركة بين طائرين الا شاهد حوادثها وعرف تفصيلها . ولا حط غراب ليشرب الا عدّ كم مرة بلل ريشه وكم مرة ألقى منقاره . وكان أبوه يأخذه الى مخزن الفلان يراقب الطيور المهاجرة قبل أن تشد رحالها وترمح رحيلها .. وكان لا يبالي ان يقف الساعات الطوال يستمع الى قريدة من طائر الى أليفه . ولم يمل ابداً أن يسهر الليل ليسمع طائر الكوكو (وهو يغني كما تدق الساعة السويسرية)

ومن شباك غرفته المطلة على الحديقة ، فم من ذلك الشباك العتيق ذي الطراز الأول كتب لويل كتابه « من شباك غرفة مطالعتي » . وكان أول فصل من فصول الكتاب وصف بديع « لمعارفه واصدقائه في الحديقة » ومن غير طيور الحديقة أول بصداقة لويل ومعرفته ؟ لقد وصفها وهي تختلس حبات التوت او تلتقط حبات الفراولة . وصفها وهي تحط جماعة وتطير جماعة . وصف جماعة منها (وهي تغني كشاد النار حول النار في غير انسجام ولا تناسق)

وليس الكتاب كله صورة للطبيعة ، أو وصفاً للحديقة . ففيه فصول تناول فيها ترجمة الذين قرأ لهم أو عرف أدبهم . فهناك فصل ممتع عن « ابراهام لنكولن » وآخر عن « جانس برسفان » وثالث عن هنري ثورو معاصره . ورابع عن « تشوسر » الانكليزي . وخامس عن « بوب » فهو نوع من كتب النقد الأدبي تجلت فيه مواهب لويل وعبرانه وسعة اطلاعاته وقراءاته

تتلمذ لويل على امرسون وتأدب بأدبه . وكثيراً ما نجده يذهب الى « بوستون » ليسمع محاضرة منه أو يثير مناقشة معه . وكثيراً ما نجد امرسون الى « صخور الشاطئ » يقضيان الطريق في حديث طويل . ولقد أعجب التلميذ بعلمه وأدبه واستشهد بكثير من عباراته وكان أحبها اليه

توب امرسون أن غرفة المطبعة قد غصت جدرانها وحوائطها بكتابة غير مستقيمة ولا واضحة، فقد شئت ان تحسنها و تصححه للقراءة فاستعن بسبب شمعة

فلما أن لويل كان ذكيًّا . ولكن هذا الذكاء الخارق ، يفقد به على العمل والنشاط . فكان دهوريًا كالسحلية — إلا في ساعات كسله الشعري — صابرًا على الجهد المتصل والعمل المستمر وكان فيه ميل إلى التقديم ولم يكن ميالاً إلى الخلود أو الرجعة . وأنه هو ميل الى الاعتزاز بالماضي والاعتداد بالتراث . . فطرازه بيته قديم . ومقاعده عتيقة الطراز وهو يحن دائمًا الى القديم من وده . والأول من صداقته ويؤثره على الطريف

ولكن لويل كان متناقضًا في ظواهره . وقد حير تناقضه هذا كل من اتصل به فهو حار القلب تارةً وبوردة تارةً أخرى . وهو سوفي في بعض أشعاره والذائذي في بعضها، وهو يعطيك الحلاوة من ضرف سحابه إذا نقبته وإذا غصت رأس منك كأس بروغ الثعلب . . . كان غريبًا في منافساته ومحاوراته فهو حريص دائمًا على أن يكسب الموقعة ولو كان خاسرًا . حريص على أن يكون الظافر في الجدل ولو لم يكسبه . . . وقد يتخذ من حركات يديه ووجهه ما ينبئه على ذلك . فاذا اندفع على خصمه ابتسم ابتسامة ماكرة ثم اعتذر عما بدا منه في أثناء الجدل بأنه صنعه لأول مرة في حياته . . ولم يكن بين لويل ولونج فيلو الشاعر معرفة حتى سنة ١٨٤٦ فقد قرأ كل منهما شعر صاحبه ولكنهما يختلفان وفي ذلك العام جمعت الاثنين غرفة واحدة هي غرفة لويل المهجورة . . . فتصارعت بينهما الأحاديث وطال الكلام، وكانت حركة منع الرقيق موضوع الحديث ولا يعجب ذا حماس لويل لمنع هذه الرذيلة الانسانية . فالدم الديموقراطي يجري في شرايينه وورداته . وزوجته الشاعرة (ماريا هوايت) شاعرة رقيقة الحس مرهفة الشعور حرة الفكر، وهي فوق ذلك نصيرة (ماوجريت فوللر) احدى حرائر أميركا وأنصار الحرية فيها

هذا هو لويل الكاتب . أما لويل الشاعر فقد حاد لونج الشعر كلمة من أغانيه وأهازيج الى ملاحم . ولو ان لويل — لولا حشية التصوير — لشقلنا أجسامها هنا . ولكنها في مستطاع من يريد الحصول عليها . وكان شعره يمتاز بالتلون الزاهي والذوق الموسيقي . والمهارة التكوينية او ما تسميها نحن جودة الوصف . ولا يقل في شاعريته عن تنسون أو هوود أو غيرهما . ولكن شهرتهم طغت على شهرته . فدانوه في ميدان الإلهة الشعر بشوط بعيد . . . ولعل مما ضاع شهرته في الشعر انه كان مفكرًا عظيمًا . ولم يكن أصيلاً مبتدعًا . حتى فقد تتلمذ بعضهم شاعر الظلال . فهو في أكثر شعره عن من قرأهم

ولا أحسب شهرة أي شاعر (لونج فيلو) معاصر (لويل) فقد كانت عاملاً من عوامل خفاء كل من ظهر من شعراء في عصره . وفي هذا يقول الشاعر العربي

(في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل ؟)